في الطريق الى السويس: خمسون عاما على العدوان (1)

ناصر كان معاديا للشيوعية.. وآمن في البداية بامكانية سلام مع اسرائيل والاخيرة دفعته للمواجهة

موشيه ديان وبن غوريون.. صقران رفضا عبد الناصر وذهبا بعيدا لافشال خطط استقطاب الاموال الاجنبية

سعيد ابو الريش*

تنشر «القدس العربي» بمناسبة مرور خمسين عاما على ازمة السويس مقتطفات من كتاب الباحث الفلسطيني سعيد ابو الريش «ناصر: آخر العرب» الذي صدر بالانكليزية (2004) وترجم للعربية، خاصة الفصول المتعلقة بجذور ازمة السويس واندلاعها لعدوان ثلاثي، وتداعياتها.

كان عبد الناصر مؤيدا للامريكيين ومعاديا للشيوعية، ضد الملكية والباشوية الفاسدة ومعارضا لحركات الاسلام السياسي. لكن اعجابه بامريكا لم يحد ولم يضعف من سلطته. وخلافا لبقية الزعماء العرب الذين عاصروه، لم يعتمد في بقاء سلطته على الامريكيين. فقد كانت الغريزة الطبيعية التي تسيطر عليه بالاستجابة لطموحات شعبه تتجاوز كل ما سواها، وذلك ما جعل منه رمزا شعبيا. وحتى نهاية عام 1955، كان رفضه الدعوة الامريكية الى الانضمام الى تحالف اقليمي مضاد للشيوعية لا يعود بأي شكل من الاشكال بالمصلحة على المصريين، بل على بقية العرب ايضا، وقد جعل ذلك عملية المصالحة بين ميوله الامريكية وسلوكه الاممي امرا سهلا نسبيا. لكن رغبة عبد الناصر في الحفاظ على سياسة عدم الانتماء الى اي من الاحلاف اصبحت تمثل مشكلة اكبر عندما قام بكسر الاحتكار الغربي لامداد العالم العربي بالاسلحة بشرائه اسلحة من المعسكر الشرقي.

وقد غدت لاحقا مسألة حسم اذا ما كان عليه الانقياد الى ما يريده شعبه او الى امريكا احدى معضلات سياسة عبد الناصر الخارجية، واكتسبت هذه المشكلة مزيدا من الاهمية عندما تغير مضمون مصطلح «شعبي» او «شعوبنا» من ان يكون المقصود به المصريين فقط الى شموله «الامة العربية» بكاملها. وعندما تعرض للضغط لاختيار احد الخيارين، استمر عبد الناصر في الانحياز الى جانب ارادة شعبه، حتى عندما كانت تلك الارادة سطحية وتفتقر الى المبررات، الامر الذي جعله يبدو وكأنه لغز.

فقد عجزت الحكومات والدبلوماسيون والصحافيون في الخارج عن ادراك كيف يمكن لشخص مثل عبد الناصر، يمتلك كل هذا القدر من المعرفة والقدرات والوعي، ان يتصرف في بعض الاحيان بمثل هذه الطيش والتهور. واصبح التناقض القائم بين لغته الدبلوماسية وصداقاته مع الدبلوماسيين الامريكيين وموظفي المخابرات الامريكية في جانب، وقبوله بميول شعبه المناهضة للامريكيين في الجانب الاخر، على وشك ان تطفو على السطح.

العلاقة مع اسرائيل

ومن اللافت للانتباه ان الموضوع الرئيسي الوحيد والمهم الذي لم يتبن تجاهه عبد الناصر سياسة شعبية كان هو العلاقة مع اسرائيل. فقد اعتقد هو ومحمد نجيب وعدد كبير من رفاقه بان السلام وشيك، في الوقت الذي كانت فيه موجة الرفض العاطفية ضد اسرائيل تتصاعد لدى الشارع المصري. ولكن كان من الواضح في حقيقة الأمر ان عبد الناصر كان متناقضا في تظاهره بالاعتدال تجاه اسرائيل عند اصداره لكتاب «فلسفة الثورة» في عام 1954. فقد وضع ذلك الكتاب الذي كانت فحواه تهدف الى اعطاء قائد حركة الضباط الاحرار ايديولوجيا، والذي تبنى فكرة القومية العربية، بل قدمها ايضا حتى على الوطنية المصرية، من اجل تصعيد سلوكيات المجابهة تجاه الكيان الصهيوني. وقد تكشف مؤخرا ان ذلك الكتاب كان من تأليف الصحافي المصري محمد حسنين هيكل، وهو قومي عربي متحمس. وقد ارسى فيه عبد الناصر مفهوم الهوية المصرية العربية، بحسب اعتقاده الشخصي والالتزامات التي تترتب على ذلك.

رأى عبد الناصر حضور مصر وتأثيرها في ثلاث دوائر مختلفة ومتداخلة للسلطة السياسية والثقافية: الدائرة العربية والدائرة الاسلامية والدائرة الافريقية. وكانت الدائرة العربية هي الاكثر اهمية، فهي اكثر مباشرة، وتعكس تفكير المصريين. ولم تكن هناك دائرة مصرية بمعزل عن القومية المصرية الشاملة، المجسدة في برنامج النقاط الست الذي اصدره عبد الناصر ورفاقه. وقد عبر كتاب فلسفة الثورة عن تغيير ضخم في الاتجاه من سياسة مصر اولا الى القومية العربية. ولان ذلك اخذ مكانه قبل مدة زمنية طويلة من الدخول في اية شؤون عربية، فان من الواضح انها كانت قضية ايديولوجيا معتدلة سابقة للحدث، وليس العكس صحيحا، كما زعم البعض.

قاد التغيير في الاتجاه من مفهوم المصرية الضيق الى الفكر العربي عبر افق اوسع، بصورة مباشرة، الى بروز عدد من الاسئلة على السطح، كان اولها: كيف يجوز لزعيم او دولة ان تفترض لنفسها منصبا عربيا، وتقود العرب، وفي الوقت ذاته تقبل مبدأ السلام مع اسرائيل؟ وفي هذا الموضوع، لم يكن عبد الناصر واضحا على الاطلاق، ولم يترك في هذا الخصوص الا القليل، مما لا يكفي للمساعدة في التوصل الى نتيجة. وفي هذا الصدد يقول هيكل: «بكل تأكيد ـ ليس هناك ما من شأنه حل هذا التناقض»، بحسب رأي رفاقه وزملائه. ولم يكن عبد الناصر ابدا اكثر وضوحا ومباشرة منه عندما ادان ـ هو او هيكل ـ الشيوعية في كتاب: الشيوعية على حقيقتها، في اوائل عام 1953. فقد شن هذا الكتاب هجوما سافرا على الشيوعية و«تبعاتها الشيطانية»، واثلج صدر الولايات المتحدة الامريكية.

السؤال الثاني يتعلق بالتوفيق بين التزام عبد الناصر المزعوم بالديمقراطية وحركته البطيئة والمعتمدة تجاه فرض سطوته على مناحي الحياة المصرية كافة. فقد كان يتصرف اما بالتسليم بما يطرحه رفاقه، او يتغلب عليه بالحيلة في الامور ذات الثقل. مثال ذلك، انه عندما فرض سطوته على الجيش بتعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما، قرع جرس الانذار وسط رفاق ثورته، وكان ذلك بمثابة سهم ارتد عليه.

وكانت هناك بالتأكيد العشرات من الاسئلة الفرعية، مثل تأثير ذلك التحول السياسي في العلاقات المصرية مع الغرب ومع الانظمة العربية الصديقة للغرب، وما اذا كانت مصر قادرة على قيادة العرب؟

معاداة الشيوعية

كان عبد الناصر معاديا بقوة للشيوعية، ولكن هل كان فعليا معاديا لاسرائيل؟ وهل كانت معاداة اسرائيل تكمن في طموحاته العربية الشاملة او في سلوك اسرائيل نفسها؟ هذا السؤال لا يزال يشهد نقاشا حاميا على المستوى الثقافي ومستوى الشارع، ومن المحتمل ان تؤدي التطورات الجديدة في منطقة الشرق الاوسط الى المزيد من النقاش. ووفقا لما ذكره خالد محيي الدين: فان عبد الناصر لم يغلق الباب اطلاقا في وجه السلام، بل على العكس من ذلك تركه مفتوحا على مصراعيه. وكان على استعداد لاستقبال الاتصالات من الجانب الاسرائيلي في هذا الشأن». وكان خالد محيي الدين يتحدث عن ايام الثورة الاولى، وقد اكد بوضوح الرأي القائل بأن عبد الناصر كان يعتقد دائما بامكانية السلام مع اسرائيل لكن هدى عبد الناصر، ابنة عبد الناصر، نفت مزاعم خالد محيي الدين، قائلة: «كان والدي يعلم بان الاسرائيليين لا يرغبون في السلام، وبالتالي قرر بانه من المستحيل محاولة التوصل الى سلام معهم، وكانت المرة الوحيدة التي قبل فيها باقتراح السلام مع اسرائيل، عندما رغب في كشف النفاق الاسرائيلي». وقد قدم حكيم الابن الاصغر لعبد الناصر توضيحا اكثر تعقيدا يؤكد بشكل ما موقف شقيقته. فقد حكى قصة عن وزير الدولة في وزارة الخارجية البريطانية السابق، انطوني ناتنغ، وهو الرجل الذي وقع الاتفاقية التي تم بموجبها جلاء القوات البريطانية من السويس، والذي قال لرئيس وزراء اسرائيل ديفيد بن غوريون بانه يحمل اليه نبأ سارا: «ان عبد الناصر مهتم برفع مستوى معيشة المصريين اكثر من اهتمامه بشن حرب على اسرائيل» ووفقا لما قاله حكيم عبد الناصر، نظر بن غوريون الى ناتنغ قائلا: «هل تسمي ذلك نبأ سارا؟».

والواضح ان القصد من القصة هو الكشف عن اسرائيل، وعدم رغبتها في ترك عبد الناصر وشأنه لكي يتمكن من بناء دولة مصرية قوية. وكان بن غوريون نفسه معارضا لاي برنامج اصلاحي من شأنه تحويل مصر من دولة منغلقة على شأنها الداخلي الى دولة تمثل تهديدا للاخرين. لقد كان التوجه الاسرائيلي الذي ساد في حينه هو دعم القادة العرب الذين لا يتمتعون بالشعبية، ورفض اولئك الذين يحظون بالمساندة الشعبية، وليس من المستبعد ان يكون هذا التوجه ساريا حتى هذا اليوم.

ومع ان هذه العناصر التي ساهمت في انتاج التناقض التاريخي على نيات عبد الناصر الحقيقية تجاه اسرائيل لا تزال قائمة، فانه ليس هناك اسلوب افضل للحكم على سلوك عبد الناصر تجاه السلام من فحص الاتصالات المبعثرة التي هدفت الى تحقيق السلام بين مصر واسرائيل خلال الفترة بين عامي 1953 و1956. واقول مبعثرة، لان تلك الاتصالات كانت عرضية، بل إن بعضها لم يتجاوز مجرد نقل افكار شبه جادة عبر وسيط من رئيس الوزراء الاسرائيلي الى عبد الناصر. والتزم بن غوريون، كسابق عهده، بالتفاوض المباشر بين العرب والاسرائيليين، (معارضا اي تدخلات من قبل اي اطراف اخرى مثل الامم المتحدة)، ولم يقم مطلقا بتوجيه دعوة الى عبد الناصر لزيارة تل ابيب، هذا هو شكل الانفتاح الذي لم يكن له ان يصبح جادا الا في حال العمل على ذلك، وهو ما كان بن غوريون يعلم بأن عبد الناصر لن يقبل به مطلقا وهو حي يرزق.

موشيه شاريت

اما موشيه شاريت، رئيس الوزراء الاسرائيلي الثاني، وعلى الرغم من كونه لا يتصف بروح الدعابة التي كان يتمتع بها بن غوريون، فقد كان اكثر التزاما في المبادرة بالاتصال بعد الناصر. وظل مداوما على ارسال رسائل جافة ورسمية وودية الى الزعيم المصري الجديد، الأمر الذي ادى الى خلق بيئة لتبادل وجهات النظر بين الطرفين. لكن غالبية الاتصالات المتبادلة كانت مرتجلة وتحدث بطريقة سرية لا يمكن تسميتها، وعبر مختلف القنوات. ومع ذلك لم تكن هناك معلومات كافية لتبرير مقولة خالد محيي الدين من انه: «ترك البابا مفتوحاً» وفوض عبد الرحمن صادق بمواصلة الحوار مع الاسرائيليين.

الأمر الوحيد المؤكد هو ان عبد الناصر كان منشغلا ببرنامجه الخاص ومشاكله خلال الفترة بين عامي 1952 و1965: ازالة الملكية والاصلاح الزراعي، وخلق بيروقراطية من ضباط الجيش القدامى، ولاحقا انتزاع السلطة من يدي محمد نجيب. وعلى الرغم من وعوده المعسولة حول بعض الامور المحددة، مثل «الحرية لكل العرب»، فليس هناك ما يستدل منه على قيامه بأي شيء حيال تلك الوعود، الى ان كان العام 1955 الذي شهد بداية النشاط الدبلوماسي الذي مهد لمسألة السويس، كما شهد تأسيس حلف بغداد لمناهضة الشيوعية بواسطة بريطانيا، كرد فعل موجه ضد انعقاد مؤتمر باندونغ الذي شهد انضمام عبد الناصر الى قادة عدم الانحياز، مثل نهرو وتيتو وشوان لاي، كتعبير عن معارضة لهيمنة الدول العظمى، وصفقة السلاح التشيكية، والتي اشترى عبد الناصر بموجبها السلاح من الكتلة الشيوعية. وباستثناء كون هذه الخطوة قد شكلت مثالا يمكن ان يحتذي به صغار الضباط العسكريين في الدول العربية الاخرى التي لم يكن تاريخها خاليا من تدخلات العسكريين في الحياة السياسية لم يأت عبد الناصر بما من شأنه التأثير في الاحداث خارج الحدود المصرية.

وقد توصلت الى نتيجة مبكرة سوف احاول تدعيمها. اني اعتقد ان اسرائيل دفعت عبد الناصر الى اعادة تنشيط التدخل المصري في المشكلة الفلسطينية، وجعلت، دون قصد منها، من فلسطين قضية مبدئية مهمة لدى عبد الناصر والمصريين، ودفعت بالحكومة المصرية الجديدة الى موقف معاد تماما لاسرائيل. ومع انه ليس بالضرورة عن عمد، فانه عندما كان يحين الوقت للضغط على القادة العرب، فان اسرائيل، لم تكن تدرك او تعلم الى متى سيستمر ذلك، وقد اساءت دوما فهم ديناميكية المجتمع العربي، وكيفية عمل الحكومات العربية، وكم من افعالها يقلل من شأن القيادة المعتدلة في العالم العربي.

اما في حالة عبد الناصر، فقد لطمته اسرائيل بشدة، وغالبا ما كانت تحقق ذلك من خلال الغارات اللانسانية على مصر، والانشطة المخابراتية داخل مصر، بحيث لم يكن امامه خيار اخر سوى الرد او الاضطرار الى التنازل عن اعز ما لديه، وهو وقوفه مع شعبه وكرامته. وهذا امر لم يتمكن الاسرائيليون ابدا من فهمه لانهم لم يحاولوا ذلك. وقد سهلت عليه المشاعر العارمة المعادية لاسرائيل لدى الشعب المصري عملية القيام بالرد على استفزازاتها. لقد كان عبد الناصر، بخلاف الآخرين الذين وصلوا الى السلطة بطرق غير ديمقراطية، يتجه بمثالية اكثر فأكثر الى تحويل الافكار الشعبية الى سياسة له.

عملية لافون

وليس هناك مثال اكثر دلالة ووضوحا على دفع اسرائيل لعبد الناصر لكي يحول طاقاته تجاه مشكلة خارجية، بدلا من التركيز على الشأن المصري الداخلي من عملية المخابرات الاسرائيلية خلال عام 1954 و1955 المعروفة باسم فضيحة لافون، والاخطاء الفاضحة التي صاحبتها مثل الغارة الشهيرة على غزة. واكثر من كونها عملية مخابرات، فقد كانت فضيحة لافون واحدة من الاحداث التي لعبت دورا رئيسيا في تغيير تاريخ الصراع العربي ـ الاسرائيلي تغييرا هائلا. اما من ناحية تأثيراتها الكلية، فهي تقارن بحربي السويس و1967، والغريب في الأمر على وجه الخصوص اننا لا نعلم حتى اليوم جميع من كان وراء الفضيحة، او كيف وقعت. لكن وعلى الرغم من ذلك، فان المعلومات الضئيلة المتوافرة توحي بالاجواء الشريرة التي تطغى على السياسة الاسرائيلية. ومهما يكن من دوافع اخرى، فقد كانت الفضيحة قطعا وبالتأكيد عملية ناجحة، من حيث انها عجلت بقدوم رئيس وزراء اسرائيلي يرغب في السلام مع العرب. وكشفت عملية لافون ايضا الازدراء الذي تتعامل به المخابرات الاسرائيلية مع العرب، وخصوصا اذا ما اخذ في الاعتبار الموقف الاسرائيلي بأن رجال المخابرات الذين شاركوا في الفضيحة ما كان يجب القاء القبض عليهم. واخيرا، فقد اكدت فضيحة لافون بأن اسرائيل كانت فيها مجموعات مناوئة للسلام منذ مطلع الخمسينيات.

ولكي نتمكن من التوصل الى فهم متكامل لأهمية عملية لافون، يجب وضعها في سياقها الخاص. فلم تكن الحدود الواقعة بين قطاع غزة ومصر من جانب، واسرائيل من الجانب الآخر آمنة على الاطلاق بشكل كامل. وتعتمد حالة العنف السائدة من جهة على شدة ردة فعل احد الطرفين للافعال الخاطئة التي يرتكبها الآخر، ومن جهة اخرى على قدرة مصر على السيطرة على المخالفين او الفدائيين في معسكرات اللاجئين الفلسطينيين. وكان الاسرائيليون ينظرون بدونية الى السكان على الجانب الآخر من الحدود. وحتى بالنسبة الى القوات المصرية المرابطة على الجانب الآخر من الحدود، فانها بالنسبة الى الاسرائيليين لم تكن اكثر من قوة عسكرية زائفة اوقعت بها الهزيمة في عام 1948. ولكن كان هناك الفدائيون الذين يتسللون الى داخل الحدود الاسرائيلية بعلم السلطات المصرية او من دون علمها، لمهاجمة اهداف صغيرة.

لم يتلق الفدائيون اثناء ايام عبد الناصر الاولى، وهي المرحلة التي كانت تقتصر فقط على سياسات النظرة الداخلية والاعتقاد بان السلام قادم، اي شكل من اشكال الدعم الرسمي، بل على النقيض من ذلك، لقد كانوا يتعرضون للاعتقال والسجن لقاء افعالهم. وحتى في تلك الفترة، لم تتردد اسرائيل في القيام بضربات انتقامية على مصر مقابل تلك الهجمات دون النظر في ما اذا كانت لدى الفدائيين موافقة رسمية على ذلك ام لا. وهو بالضبط ما يعبر عن مستوى رد الفعل الاسرائيلي السائد في معظم الاحيان، بغض النظر عما اذا كان الفعل تحريضيا او مبادرا به، او كان عدوانا بلا مسوغات، بواسطة دولة اكثر تفوقا عسكريا، الامر الذي يكشف اسلوب التفكير الاسرائيلي. وبالطبع فان اي فعل غير متناسب يتم اتخاذه يعني ان الفدائيين سيضربون مرة اخرى ردا على عمليات الانتقام، وستتكرر دائرة العنف ويموت المزيد من الناس ويتعرض الآخرون للاصابة. وهذا لا يختلف كثيرا عما يحدث في الضفة الغربية وغزة في الوقت الحاضر.

تقاعد بن غوريون

وعلى الرغم من ان مجموعة وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية المتمركزة في القاهرة، كوبلاند وليكلاند ومد وآخرين، والتي كانت تعمل تحت ادارة كيرميت (كيم) روزفلت من البعد، حبذت فكرة بيع الاسلحة لمصر، الا ان وزارة الخارجية الامريكية تمسكت بالتعهد الثلاثي الموقع بين فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الذي حظر بيع الاسلحة، ورفض بذلك رأي الاستخبارات المركزية الامريكية. وتكرر الامر نفسه عندما حاول عبد الناصر ذلك مع الفرنسيين، بينما امتنعت مصر عن محاولة شراء الاسلحة من بريطانيا بسبب ازمة الثقة العميقة. وبالتالي لم تكن مصر في موقع يؤهلها للرد على الغارات الاسرائيلية، حتى عندما رغبت في ذلك. وظل الحال على ما هو عليه الى ان اغارت اسرائيل على قرية قبية في الضفة الغربية في تشرين الاول (اكتوبر) 1953، وقد ادعت اسرائيل ان ذلك الهجوم كان ردا انتقاميا على عملية فدائية، وقتلت ستة وستين من سكانها. وعلى الرغم من حقيقة ان الغارة كانت على منطقة تقع تحت سيطرة السلطة الاردنية، لكن العرب الآخرين سادهم ايضا احساس بالخزي والمهانة. وكغيرها من البلدان العربية الاخرى، اقدمت مصر على ادانة العدوان ولكنها لم تزد على ذلك شيئا.

واخيرا في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) 1953 تلقى عبد الناصر بعض الانباء السارة من جانب اسرائيل. فقد اعلن رئيس الوزراء الاسرائيلي بن غوريون الرجل الذي يقف وراء السياسة الاسرائيلية الخاصة بالحملات الانتقامية الضخمة، تقاعده وانسحب معتزلا في النقب في مستوطنة سيد بوكر. وقد خلفه في رئاسة الحكومة اول وزير اسرائيلي للخارجية، موشيه شاريت، الدبلوماسي الضليع واختصاصي اللغات الذي يجيد التحدث بالعربية، واحد المعجبين بالثقافة ونمط الحياة العربية، والذي يفضل مناداته بـ«البروفسور». وكان الفرق في الشخصية بين بن غوريون وشاريت واضحا، فقد كان الرجل العجوز اشعث وغير مريح في حلته، بينما كان شاريت دائما يرتدي زيا خاليا من العيوب، ويبدو عليه مظهر رجل اعمال وقور من اواسط انكلترا او مركز المانيا الصناعي. وقد اعتقد كثيرون من المراقبين الذين عرفوا شاريت انه سيقود العلاقات العربية ـ الاسرائيلية تجاه الاعتدال، وربما مع مرور الوقت يمكنه تحقيق السلام.

وتولى مهام منصب وزير الدفاع، وهو المنصب الذي كان يشغله بن غوريون عندما كان رئيسا للوزراء، بنحاس لافون، الشخص الذي يصعب التنبؤ بسلوكه، والذي كان تحت حماية ديفيد بن غوريون، وكان ينتهج نهجا متطرفا ضد العرب.

ويعكس هذا التعيين الانقسام الكائن حينها داخل البرلمان الاسرائيلي، وفقا للتمثيل النسبي اكثر منه تعبيرا عن قبول شاريت بأي شكل من الاشكال بسياسة لافون المتطرفة. وبالفعل، فقد بدأت عمليا الاتصالات السرية بين اسرائيل ومصر في شخصي شاريت وعبد الناصر مباشرة بتولي شاريت لمهام منصبه. وقد وثق كل من البروفسور مردخاي بار ـ اون، وهو موظف سابق في المخابرات الاسرائيلية، والدبلوماسي آفي شليم، وهو مؤرخ اسرائيلي جدير بالثناء، الاحداث الخطيرة لتلك الفترة.

اتخذت الاتصالات الاسرائيلية ـ المصرية الاصلية مجراها عبر قنوات وساطة دبلوماسية امريكية، مع بعض المساهمة من وكالة الاستخبارات المركزية الامريكية. وعقدت الاجتماعات الاولى في واشنطن العاصمة. وكان من المفترض ان يكون السفير الامريكي لدى مصر قد لعب في بداية الامر دور الوسيط، ثم جاء عقب ذلك دور بعض الدبلوماسيين الذين لم يرد ذكر لاسمائهم، ومن ثم جاءت الاجتماعات المباشرة. ومثل اسرائيل في اجتماعات واشنطن الرئيس المستقبلي حاييم هيرتزوغ، والدبلوماسي جدعون رافائيل، بينما مثل الجانب المصري اللواء عبد الحميد غالب من السفارة المصرية. وليس هناك ما يمنع من افتراض ان الامريكيين، رغم انهم لم يحضروا الاجتماعات كطرف، الا انهم كانوا على علم باجتماعات واشنطن. وكانت خلفية المحادثات مشكوكا فيها، حيث لم تكن هناك اية حوادث حدودية كبيرة قد وقعت بين الطرفين في ذلك الوقت. وقد تمكن عبد الناصر من كبح جماح الفدائيين، وبالتالي لم يكن لشاريت دافع للانتقام، وخلافا للصقور، لم يبادر الى اطلاق اية غارات. وكان حسن النية متبادلا بين الطرفين.

لم يتسرب من انباء تلك الاجتماعات اكثر من النقاط العامة: اصرار المصريين على قرارات الامم المتحدة حول النزاع العربي ـ الاسرائيلي كأساس للحل الدائم وتعنت شاريت على الجانب الآخر، وامتناعه عن تطبيق بعض المطالب التي تنص عليها تلك القرارات، مثل عودة غالبية اللاجئين، والتخلي عن بعض الاراضي لصالح العرب. كما لم تكن هناك اية تسجيلات موثوقة لما دار داخل تلك الاجتماعات حتى في مذكرات هيرتزوغ. لكن الاتصالات استمرت في باريس، الامر الذي اكد على الالتزام بالحوار من كلا الطرفين. وكما اشير سابقا، فقد عقدت بعض اجتماعات باريس مع عضو قيادة الثورة البارز ثروت عكاشة. ويوضح ذلك ايضا احد امرين، فاما ان يكون حدس عبد الناصر حول مساندة مجلس قيادة الثورة لنظرية السلام مع اسرائيل صحيحا، او انه اقحمهم فيها. وفي كلا الحالتين، كان مجلس قيادة الثورة يقف الى جانب تسوية النزاع العربي ـ الاسرائيلي عن طريق الحوار.

وكما هو واضح، فان القنوات الرئيسية لما كان يعرف بـ«المفاوضات السرية» كانت مكونة من السكرتير الاول للسفارة الاسرائيلية في باريس شاموبل بورن، وعلي الشوكي وعبد الرحمن صادق من السفارة المصرية. وبتقييم لمنطلق الخطابات غير الموقعة التي تم تبادلها بين عبد الناصر وشاريت، فان الاثنين لم يدخرا جهدا في سبيل الجلوس الى طاولة المفاوضات، ومناقشة المواضيع الصعبة التي تفصل بين البلدين. وقد رغب شاريت من عبد الناصر في رفع الحظر المفروض على الشحن من والى اسرائيل عبر قناة السويس وخليج العقبة. وبالمقابل، طلب عبد الناصر من اسرائيل قبول عودة اللاجئين الفلسطينيين. وتعبيرا عن جديته، بدأ عبد الناصر بالفعل في التفاوض حول اعداد اللاجئين الفلسطينيين، لم يرغب كلا الطرفين في التقدم بالتفاوض. لكن اجواء الحوار كانت ودية، وعرف عن عبد الرحمن صادق تأكيده للاسرائيليين انه ليس لدى عبد الناصر اية نيات عدوانية تجاههم.

ويعتقد البروفسور آفي شليم ان تلك الاتصالات وفرت درجة معقولة من الامل. ويقول ان والده الصحافي ظل يساند آراءه واقواله (آفي شليم) بأنه وبسبب جدية المفاوضات القائمة، تدهورت العلاقات بين عبد الناصر ومفتي فلسطين، رئيس اللجنة العربية العليا وعرفات زمانه. وكان المفتي ذو النزعة العسكرية معارضا تماما لحركة عبد الناصر. وتحدثت تقارير غير مؤكدة عن تحالف قوات المفتي مع قوات الاخوان المسلمين في معارضتهم لسياسات عبد الناصر تجاه اسرائيل. ومن المهم الاجابة عن سؤال عما اذا كانت تلك المحادثات ليست سرية فقط، وانما ايضا واعدة؟

والاجابة هي بـ«نعم»، ولكنها غير قاطعة. فقد مثلت المفاوضات شيئا غاية في الجدية، حتى ولو كان ذلك يعزى فقط لمجرد ان اطرافها كانوا يعملون تحت ادارة رؤساء حكوماتهم مباشرة، وان مجرد لقاء الطرف الآخر في حد ذاته يمثل تغييرا رئيسيا في السياسة المعتمدة للحكومة المصرية على الاقل. ومصر لها وزنها عند العرب، فهي المركز الثقافي للمنطقة ومقر الجامعة العربية. وغيابها عن الصف العربي كان سيشكل نهاية لمعارضة الحكومات العربية او يضعفه بشكل دائم، مثلما حدث في عهد السادات. لم يكن لدى العرب خطة لمحاربة اسرائيل، اذ تجاوزنا عدم امكانية الحاقهم هزيمة بها، ولكنهم لم يكونوا جاهزين للسلام معها. وكان اول القادة الذين تفاوضوا سرا مع اسرائيل قبيل عبد الناصر هو الملك عبد الله، ملك الاردن، ودفع حياته ثمنا لذلك في عام 1951. وكان تفكير المفتي مختلفا، فقد اراد، مثله مثل ياسر عرفات من العرب، تسليح الفلسطينيين لكي يحاربوا من اجل وطنهم ودعم قيادته. وكان هناك تقارب بين افكاره وافكار الاخوان المسلمين. فهو قطعا لم يوافق عبد الناصر في كسر وحدة الصف العربي بالتفاوض مع اسرائيل حول سلام منفصل، واعتقد بأن موقف عبد الناصر كان تراجعا. وعلى الجانب الآخر، عارض كثيرون من الاسرائيليين مفاوضات السلام مع الدولة التي تتزعم العرب، في وقت لم تكن فيه دولة اسرائيل الصغيرة والمعزولة عرقيا ودينيا عن بقية دول المنطقة قد اشتد عودها بعد. واعتقدوا ان اسرائيل في حاجة الى المزيد من الوقت لاكتمال نمو هويتها الوطنية، ورأوا في السلام خطوة خطيرة قد تتسبب في غرق اسرائيل في البحر العربي. واذا ذهبنا ابعد من ذلك، فقد كان هناك خطر على الجانبين: الموقف العربي العام، والهوية الاسرائيلية اليهودية، في حال نجاح المفاوضات. وما لم نضع في الاعتبار قدرة المتشددين داخل البلد ممثلين في الاخوان المسلمين على الاستفادة من المشاعر المعادية لاسرائيل، فلن يكون هناك خطر على مصر من الداخل. ولقد كان عبد الناصر في موقف افضل من شاريت لمواصلة المفاوضات. ولم يكن وقت السؤال قد ازف بعد حينها، بحكم انه كان، ولا يزال، من المستحيل الحكم على مدى شعبية اي امر يتم في الظلام.

وكانت مشاعر الاعتدال تجاه العرب التي خلقتها حكومة شاريت قد حدت الصقرين السياسيين، ديفيد بن غوريون وموشيه دايان في اسرائيل، على معارضة مفاوضات السلام السرية. ولذلك قرر الصقران الذهاب الى ابعد من المضي في سحب الثقة من حكومتهما، فبدا بالتقليل من شأن مصر وسياسات عبد الناصر المعتدلة. وحتى في الوقت الذي كانت مصر مقبلة فيه على ابرام اتفاقية انسحاب سلمي مع بريطانيا وحوار مع الولايات المتحدة بشأن تحسين مستوى التعاون الامني والمخابراتي بين البلدين، كان العسكريون الاسرائيليون يرون في مصر قيادة للعرب المتمردين، وان تأثيرها يؤدي الى اشاعة عدم الاستقرار في باقي المنطقة ويجب التخلص منه. وكانت تلك المجموعة من السياسيين الاسرائيليين تعتقد بان على بريطانيا عدم توقيع اتفاق مع دولة غير مستقرة. وبالمثل، فان على الولايات المتحدة النأي بنفسها عن التحالف مع النظام المتهاوي وغير الجدير بالثقة القائم في مصر.

يضاف الى ذلك انه في الوقت ذاته الذي كانا يشككان فيه في استقرار مصر، ومن خلال تكرار التشكيك في ذلك الاستقرار، كان الصقران الاسرائيليان يدبران لافشال مخططات عبد الناصر في استقطاب رؤوس الاموال الاجنبية. وكان عبد الناصر قد اعلن بالفعل عددا من اجراءات اعفاء المؤسسات الاجنبية من الضرائب، والسماح لها بالمساهمة في اغلبية الشركات في مصر.

* كاتب وصحافي فلسطيني يقيم في فرنسا